أبي علي أحمد بن مُحَمّد بن يعقوب «مِسْكَوَيْه»: تَهذيبُ الأخلاق

تَهذيبُ الأخلاق

أبي علي أحمد بن مُحَمّد بن يعقوب

«مِسْكَوَيْه»

المُتوفى سنة ٤٢١ هجريّة

دراسة وتحقيق

عماد الهلالي

منشورات الجمل

أبي علي أحمد بن مُحَمَّد بن يعقوب «مِسْكَوَيْه»، **تَهذيبُ الأخلاق**،
دراسة وتحقيق: عماد الهلالي
الطبعة الأولى، جميع حقوق الطبع والنشر والاقتباس باللغة العربية محفوظة
لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت، ٢٠١١
ص.ب: ٥٤٢٨ ـ ١١٣، بيروت ـ لبنان
تلفاكس: ٠١ ٣٥٣٣٠٤ (٠٠٩٦١)

© *Al-Kamel Verlag* 2011
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a.N . Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الإهداء

إلى مَن ربّياني صغيراً
وأشرفا على تربيتي وتعليمي
وشجعاني على الدراسة والبحث العلمي
مادّياً ومعنوياً
إلى أبويّ الكريمين
والقلم لا يفي لِحقِّهما مهما كتب
ولا يسعني إلاّ أن أدعو لهما:
«ربِّ ارحمهُما كما ربّياني صغيراً»

عماد

القسم الأول

الدراسة

مقدمة التحقيق

تمثل دراسة الأعلام وتطورهم الفكري ومصادر ثقافتهم وإنتاجهم، مبحثاً هاماً في الفكر الفلسفي ـ الأخلاقي، قديماً وحديثاً، كما تلعب البيئة الاجتماعية والثقافية، وخصوصاً الأسرة، دوراً كبيراً في تشكيل ذهنية الكاتب وفي وقت مبكر، ولها الأثر في تكوين اتجاهاته الثقافية والمعرفية على العموم.

وقد وقع اختياري على عَلَم من أعلام الحكمة "wisdom" والأخلاق "Ethics" في القرن الرابع الهجري، ألا وهو أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب المشهور بـ «مسكويه» "Miskawayh"، لتحقيق كتابه «**تهذيب الأخلاق**؛» لما له من الأهمية الكبرى في الدراسات الأخلاقية قديماً وحديثاً.

وتتجلّى أهمية هذا الكتاب في الأسباب الآتية:

I ـ إنَّ هذا الموضوع يتعلّق بعَلَم من أعلام الفلسفة "Philosophy" والأخلاق والنقد "Critique"، وهب نفسه للعلم "Science" والمعرفة "Cognition"، وسخّرها للدفاع عن الأخلاق الحسنة، وهو جدير بأن يدرس ويحلل، وتسلّط عليه الأضواء لإبراز معالم شخصيّته العلمية.

II ـ إنّ هذا الكتاب **تهذيب الأخلاق** يمثل قمّة الإبداع الأخلاقي في أجواء الفكر العربي والإسلامي في ذلك العصر، وقد سجّل مسكويه فيه أدق النظريات الأخلاقية وأنبلها.

III ـ يعتبر كتاب **تهذيب الأخلاق** مصدراً أساسياً لدراسة علم الأخلاق "Ethics" في القرن الرابع الهجري، والعصر البُوَيهي، ذلك لأنّه جاء عن مشاهدة وعيان من مسكويه، أو عن نقل مباشر عن الرجال الذين عاشوا في تلك الحقبة.

IV ـ هذا التحقيق يتعلق بإحياء التراث العربي "Arabic Tradition"، ومصدر من أدق المصادر في الدراسات الأخلاقية، ألا وهو **تهذيب الأخلاق**؛ لربط الحاضر بالماضي، ولإحياء جهود الذين خلّفوا هذه الكنوز الثمينة، والمخطوطات القيمة، لينتفع بها الدارسون والباحثون،

ومساهمة في نشر الثقافة الأخلاقية، فنضيف بذلك إلى المكتبة العربيّة كتاباً مدروساً ومحققاً تحقيقاً علمياً.

لذا حققتُ الكتاب لنوفيه حقّه، وقد حاولت تلافي كل تقصير في الطبعات السابقة؛ لإبراز الكتاب بصورة مشرقة ليعم نفعه، ويزداد إقبال الدارسين عليه.

وقد شجعني ذلك على اقتحام هذهِ الصعاب، فقدمتُ عرضاً واضحاً، وصورة متكاملة لجهود مسكويه، ومنهجه الأخلاقي في كتابه.

لهذه الأسباب وغيرها، تحركتُ على مستوى تحقيق و دراسة هذا السفر الثمين.

علمُ الأخلاق

الأخلاق ركيزة مهمة ومن أهم الركائز التي تقوم عليها صياغة الواقع المعاش، إلى واقع يسير بالأمة نحو حياة أفضل، فلذلك تجد الديانات والأمم والشعوب تحرص حرصاً تاماً على هذه المبادئ وتحافظ عليها من الانهيار أو أن تشوبها شوائب الكدر أو أن تنالها يد العابثين.

يقول أمير الشعراء أحمد شوقي (ت ١٩٣٢م):

وإنـمـا الأمَـمُ الأخـلاق مـا بَـقِـيَـتْ فـإنْ هُـمُ ذَهَـبَـتْ أخـلاقُـهـم ذَهَـبـوا[١]

الأخلاق في اللغة

الأخلاق: جمع خُلُق، وأصلها خَلقَ، قال ابن فارس: خلق: الخاء واللام والقاف أصلان، أحدهما: تقدير الشيء، والآخر: ملامسة الشيء.

وقال: ومن الأول: الخُلُق، وهي السجيّة، لأنَّ صاحبه قد قُدّر عليه، وأما الأصل الثاني: فصخرة خَلْفاء: أي ملساء[٢].

والخُلق: الدين والطبع والسجيّة[٣]. ويطلق على صفات النفس الباطنة، قال الراغب: «الخَلْق والخُلُق في الأصل واحد، كالشرب والشُرب، لكن خص الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخلق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة»[٤]. وقال ابن

---

(١) مجلة رسالة المسجد، العدد ١٢٠، السنة السابعة والعشرون، ٢٠٠٦م، سلطنة عمان، ص٢٣، مقال تحت عنوان: إنّما الأمم الأخلاق.

(٢) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج٢، ص٢١٣، تحقيق: عبدالسلام محمّد هارون، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ.

(٣) لسان العرب، ابن منظور، ج٥، ص١٤٠، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤م. القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٨٩٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م.

(٤) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص٢٩٧، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ١٩٩٦م.

الأثير وابن منظور: «وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة»[1].

ويظهر من معنى الأخلاق في اللغة:

I ـ أن الأخلاق صفات للنفس الباطنة.

II ـ أنها خاصة بسجايا النفس وقواها التي يمكن وصفها بالحسن والقبح.

والأخلاق علمٌ بأصول يعرف به حال النفس من حيث ماهيّتها وطبيعتها وعلّة وجودها وفائدتها وما هي وظيفتها التي تؤدّيها، وما الفائدة من وجودها وعن سجاياها وأميالها وما تنقلها بسبب التعاليم عن الحالة الفطرية.

وكلنا يرى نفسه وجميع ما حوله من الموجودات في تغيير دائم، وسير حثيث، ولكن إلى أين تسير هذه القوافل؟

للجواب على هذا السؤال نقول إنه يمتدُّ تاريخياً بامتداد الفكر البشري، إذ أنّهُ من أوائل الأسئلة التي واجهها الإنسان حينما وجد نفسه موجوداً يفكّر في جميع أمور الحياة، وقد حثّ الحكماء والأنبياء والعلماء وسائر المفكرين على التأمّل في المسير والمصير.

رحم الله امرءاً عَلِم من أين؟ وفي أين؟ وإلى أين؟[2].

إن الله خلق الإنسان بالطبع يميل إلى الاجتماع. والمعروف إن أرِسطو "Aristotle" أول من قال بأنَّ الإنسان مدني بالطبع. وكذلك قال قبله أفلاطون "Plato" إنَّ الإنسان يحتاج للاجتماع والتعاون، لأنَّ الإنسان يحتاج للآخرين في بناء المدينة السعيدة. ومن فلاسفة الأخلاق الذين ذهبوا على القول بأنَّ حياة الإنسان تكتمل بالمجتمع هما، يحيى بن عدي ومسكويه[3].

ولمّا كان موضوع علم الأخلاق[4]، البحث في حال النفس، وهي أشرف الموجودات

---

(١) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، ج٢، ص٧٠، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ.

(٢) راجع: مقدمة شرح منازل السائرين، أبي إسماعيل عبدالله الأنصاري، شرح: كمال الدين عبدالرزاق القاساني، ص ٧، تحقيق وتعليق: محسن بيدارفر، منشورات بيدار، قم، ٢٠٠٢م.

(٣) انظر: الفلسفة السياسية عند ابن أبي الربيع، الدكتور ناجي التكريتي، ص٢٢، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧م.

(٤) علم الأخلاق :"Ethics" وهو العلم الذي يبحث فيما ينبغي أن يكون عليه الإنسان، وماذا ينبغي أن يعمل وبأيّ شكل يشكّل حياته.

بسبب جوهرها المجرّد، الذي يتناسب مع أنفس الملائكة من هذهِ الجهة، وقد أفاض الله المعلومات، والأسماء الدّالة على المسميات على أول بشر خلقه من خلقه، وجعله خليفة في أرضه، ولم يعلمها ملائكته المقرّبين، لما في ذلك من عدم الضرورة الداعية الى تعليمهم إيّاها، لتجرّدهم عن ماديّات هذا العالم، وكثافته، ولأنهم منزّهون عن معنى المشاركة في المصالح الأرضية التي تستلزم المزاحمة، وهي بلا شك، تقتضي وجود صناعة ذات أصول، وقواعد لتربية الأنفس، بحيث تجعلها صالحة للبحث في أحوال الموجودات على وجه يضمن الاعتدال في الطلب، ويسير بكل نفس إلى ما أعدّت له وتهيّأت إليه.

الأخلاق، صناعة الحكماء والأنبياء

هذه الصناعة التي حلّت في المحل الأول من الحكماء "Sages" والأنبياء "Prophets"، ثم انعكست في سيرة الملوك العادلين والسلاطين الصالحين، كانت سبباً لنظم المجتمعات البشرية وتدبير مصالح الخلق على اختلاف في الغايات، وتفاوت في المشارب، وتباعد في الاستعداد، وتباين في التهيّؤ والقابليّة، والتي تجعل العدل شعاراً، والرحمة دثاراً، لا يمكن أن يعبّر عنها بغير صناعة الأخلاق.

ولما كان أشرف العلم يرجع إلى شرف موضوعه، كان العلم الإلهي أشرف الموضوعات قاطبة، يليه في الرتبة الرياضيات ثم الطبيعيات، وعلى مستوى العلم الطبيعي ذاته تجد أنّ البحث من النفس الإنسانية أشرف من سائر الأبحاث الأخرى.

ولكي يضمن مسكويه سلامة العقل الإنساني عامه، وسلامة إدراكه الذات الإلهيّة والوصول إليها، رأى أنّ المرء ينبغي أن يتعلم في صباه الرياضيات، فيتدبر بها، ثم المنطق الذي هو بمثابة قانون أو إله للفلسفة يتمكن المرء من اكتشاف الأخطاء وعدم الوقوع فيها[1].

والخلق عند مسكويه هو الطبع والسجية، وهو بهذا يتعلّق بأعمال الإنسان الباطنية لا الظاهريّة. ويعرف مسكويه الخلق في «التهذيب» بأنه حال للنفس داعية لها أفعالها من غير فكر ولا رويه[2].

---

(١) ابن مسكويه «مذاهبُ أخلاقية»، كامل محمّد محمّد عُوَيضة، ص٨١ـ٨٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.

(٢) التراث النفسي عند علماء المسلمين، الدكتور محمّد شحاتة ربيع، ص٢٩١، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٤م.

الرغبات والصراعات النفسيّة

هناك رغبات وتيارات متضادة ومتصارعة في داخل الإنسان، بعضها مفيد، وإن كان في الظاهر متعباً أو مضرّاً، والبعض الآخر مضر، وإن كان بحسب الظاهر لذيذاً ومُريحاً... ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

إذن فالرغبات والدوافع النفسيّة ليست كلها مفيدة للإنسان، ويمكن اعتبار المفيد منها صديقاً للإنسان، والمضر منها عدوّاً داخلياً له، ولكن هل هناك محرّك يقف وراء هذه الرغبات المتضادة يمكن اعتباره صديقاً، أو عدوّاً لنا؟[2]

وعند مراجعة كُتب الأخلاق، نجد تحذيرات شديدة من عدو داخلي يسمّى بـ «النفس»، كما جاء عن لسان النبيﷺ: «أعدى عدوُّك نَفسكَ الّتي بينَ جَنبيكَ»[3]. لأن النفس مركز العواطف والميول والشهوات لدى الإنسان. وحقيقة الإنسان هي بروحه أو النفس المجردة التي تستخدم هذا الجسد كآلة لها في عالم الطبيعة والدنيا[4].

ويذكرون هذا العدو بأسماء مختلفة، فتارةً باسم النفس الأمّارة، وأخرى باسم الهوى، أو الشهوات، وغير ذلك.

المصالحة بين الإنسان ونفسه

ولكننا لا نجد في أعماقنا حالة من العداوة والكراهيّة الحقيقية لهذه الأسماء، وإن تظاهرنا بها، بل واكثر من ذلك، هناك حالة من المصالحة بين الإنسان ونفسه!!

أمّا أهميّة علم الأخلاق في النفس الإنسانية، فبالإضافة إلى كونها مقدمة ومفتاحاً لمعرفة الله، فإنها تشكل الطريق للسعادة الحقيقية في الدنيا، فما فائدة الأموال والمقام الاجتماعي،

---

(١) البقرة/ ٢١٦.

(٢) انظر: حقيقة الإنسان ـ النفس الإنسانية بين متطلبات الروح ونوازع الأنا ـ أحمد القبانجي، ص ٦، الطبعة الثانية.

(٣) ميزان الحكمة، محمد الرّيشهري، ج٦، ص ٩٥، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤هـ، عن كتاب: نور الحقيقة، عزّ الدين الحسين بن عبد الصمد الحارثي الهمداني العاملي (والد الشيخ البهائي)، ص١٦٣، تحقيق: محمّد جواد الحسيني الجلالي، قم، ١٩٨٣م.

(٤) معجم المصطلحات الأخلاقية، إشراف: السيد عباس نور الدين، ص٦٨، مركز باء للدراسات، بيروت، ٢٠٠٦م.

وجميع أنواع الملذّات الماديّة، إذا كان الإنسان متمزّقاً من الداخل؟ وما فائدة العلم ـ بجميع أنواعه ـ إذا كان مصحوباً بهمجيّة أخلاقية وأنانيّة حيوانية.

لذلك يبني مسكويه فلسفته الأخلاقية على الفصل بين روحانية النفس ومادية الجسم من جهة، وبين الاعتدال بين التفريط والإفراط من جهةٍ أخرى[1].

إنَّ الإنسان برأي مسكويه، مُيّز بالعقل والروية، ولذا فعليه احترام العقل والحرص على عمل الخير وتجنب الشر. وعندما يشير إلى النفوس الثلاث ينصح باتباع النفس الناطقة ويسميها بالملكيّة. ولمّا كان الإنسان جسداً وروحاً، فسعادته تتم إذا حصل على الفضائل الجسمية، والفضائل الروحية، ولكن مع هذا فمسكويه يرى أن الإنسان مهما اكتملت حاجاته الجسمية لا تكتمل سعادته، بينما الذي تتوفر له الحكمة ويستنير بالنور الإلهي ويتجه كلياً إلى الملأ الأعلى، فيغتبط بما يحصل عليه من فيض نور الأول فقد وصل إلى أقصى السعادات[2].

ما هو الهدف من الحياة؟

إذا لم يعرف الإنسان طموحاته وأهدافه بصورة جيّدة، ولم يميّز الضّار من النافع منها، والحق من الباطل، فقد يقضي سنوات عزيزة من عمره يتعب ويكدح، ثم يلقي به في البحر ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾[3]

وبمعرفة الإنسان نفسه، يعرف مجتمعه، وبعد إصلاح نفسه يسعى لإصلاح مجتمعه بصورة صحيحة، وقد يوفّق لانقاذه من الضلال والأزمات الاجتماعية، والانحراف العقائدي والأخلاقي، كما شأن الحكماء والأنبياء في أقوامهم.

وفي العصر الحاضر، حيث انتشرت الأمراض النفسية والأخلاقية (على الخصوص في عالمنا الثالث)، والأزمات الداخلية، بشكل لم يسبق له مثيل، وظهرت آثارها على شكل نزاعات قبلية وعرقية وطائفية وعائلية، وانحرافات أخلاقية، وعُقد نفسيّة من قلق وكبت، وتطرف ديني ومذهبي، كما يعرف اليوم بالأصولية الدينية "Religious Fundainentalism" وشذوذ

---

(١) انظر: تهذيب الأخلاق لمسكويه، تحقيق: الدكتور قسطنطين زُرَيق، ص٢٤ ـ ٢٨، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٦٦م.

(٢) انظر: الفلسفة السياسية عند ابن أبي الربيع، الدكتور ناجي التكريتي، ص٤٤ ـ ٤٥، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

(٣) النحل/ ٩٢.

جنسي، وعداوات مع الأقربين، فضلا عن بقية الناس، كان الأجدر بكل فرد منّا، أن يهتم بنفسه من موقع الوضوح في الرؤية، وإماطة اللثام عن الجانب المغلق منها.

لذلك يرى مسكويه ضرورة الاجتماع والتعاون، لأنَّ الإنسان لا يستطيع أن يحصل على السعادة كاملةً بمفرده، فكل واحد من أبناء المجتمع يقوم بجزء من العمل حتّى يكون الكمال الإنساني، ولذا ينصح مسكويه أن يحب الناس بعضهم بعضاً[1].

الكتب الأخلاقية قبل مسكويه

من أبرز الكتب الأخلاقية في العالم الإسلامي التي أُلّفت قبل كتاب «تهذيب الأخلاق» لمسكويه، والتي وصلت إلينا هي:

١ ـ الأدب الصغير: عبدالله بن المقفّع (١٤٣هـ).

٢ ـ الأدب الكبير: للمؤلف نفسه.

٣ ـ أخلاق الملوك: عمرو بن بحر أبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ).

٤ ـ كتاب التاج: للمؤلف نفسه.

٥ ـ عيون الأخبار: أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ).

٦ ـ كتاب مكارم الأخلاق: أبي بكر عبدالله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي (ت ٢٨١هـ).

٧ ـ رسالة المجالسة والجُلساء: أبو العباس السرخسي (ت ٢٨٦هـ).

٨ ـ أدب النفس الشريفة والأخلاق الحميدة: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ).

٩ ـ أدب الدين والدولة: علي بن ربَّن الطبري (ت نحو ٣١٠هـ).

١٠ ـ الطب الروحاني: أبو بكر محمد بن زكريّا الرازي (ت نحو ٣١١ أو ٣٢٠هـ).

١١ ـ السيرة الفلسفية: للمؤلف نفسه.

١٢ ـ أخلاق العلماء: أبو جعفر حسين الآجُرّي الشافعي (ت ٣٦٠هـ).

١٣ ـ تهذيب الأخلاق: يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا (ت نحو ٣٦٤هـ).

---

(١) انظر: تهذيب الأخلاق لمسكويه، تحقيق: قسطنطين زريق، ص١٥، الجامعة الأمريكية، بيروت.

١٤ ـ اللمع في التصوّف: أبو نصر سراج الطوسي (ت ٣٧٨هـ).

١٥ ـ السعادة والإسعاد: أبو الحسن العامري (ت ٣٨١هـ).

١٦ ـ قوت القلوب: أبو طالب المكّي (ت ٣٨٦هـ).

١٧ ـ رسائل أخوان الصّفا أو إخوان الصّفاء وخلاّن الوفاء: مجموعة من المفكرين المجهولين (القرن الرابع الهجري).

١٨ ـ أخلاق الوزيرين: «مثالب الوزيرين:» الصاحب بن عبّاد وابن العميد: أبي حيان علي بن محمد التوحيدي (نحو ٤١٤هـ).

الفصل الأول: سيرة مسكويه أفق ثري في الفلسفة الأخلاقية

(I) السيرة الذاتية والعلمية لمسكويه
(رؤية من الخارج)

مقدمة

من المفيد الحسن أن ندرس عطاءات المثقفين الماضين، وأن نتذكر أن بيننا وبينهم أزمنة سحيقة، وفضاءاتهم المعرفية غير فضاءاتنا المعاصرة، هذا التذكر يجنبنا المغالطات الإسقاطيّة، أي إسقاط مفاهيمنا الحديثة على ما أنتجوه من طروحات وتصورات. بمعنى آخر أنَّ إمكانيات الماضين العلمية هي إمكانيات أزمنتهم وظروفهم الاجتماعية، وما كان بإمكانهم أن يتجاوزوها، لذا لا يمكن أن نحاكمهم أو نتحاور معهم وفق معايير عصرنا، وآليات فهمنا الراهنة، لأنَّ لكل فترة من فترات التاريخ تصوراتها ومعاييرها الخاصة[1].

لم يرد في المصادر القديمة التي وصلت إلينا، ذكرٌ بالتفصيل عن حياة مسكويه يُجيب على الكثير من الأسئلة المطروحة أمام دارسيه، وعن نشأته ومراحل تعليمه. ولعلّ بدايات تحصيله العلمي كانت على الطريقة السائدة في عصره من التعليم في الكتاتيب[2]. والتي من خلالها يتعلم التلميذ أوليات العلوم وأصولها[3].

وكُلّ ما لدينا هو قطعٌ مبعثرةٌ في هذا المصدر أو ذاك، كتبها أصحاب التراجم ومُؤرخو الحكمة، وهي قليلةٌ جداً.

---

(١) انظر: مسكويه فيلسوف الأدباء، مهدي النجار، جريدة الصباح العراقية، الصادرة في بغداد بتاريخ: ١٩ تشرين الأول (اكتوبر) ٢٠٠٦م.

(٢) «ابن» مسكويه ـ فلسفته الأخلاقية ومصادرها، عبدالعزيز عزّت، ص٨٥، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، القاهرة، ١٩٤٦م.

(٣) الأخلاق بين المدرستين السلفية والفلسفية (مسكوية وابن القيم نموذجاً، الدكتور عبدالله بن محمد العمرو، ص٢٦، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ٢٠٠٦م.

ولا ينفع في شيء أن ندين مرة أخرى فقر المراجع العربية التي وصلتنا عن العصور الماضية ونواقصها. أقصد المراجع الخاصة بالسيرة الذاتية للكتاب وبمؤلفاتهم، فهي لا تعطينا صورة واضحة ومتكاملة عنهم[1].

ومن الأسلم والأصح أن نعترف بأن مراكز اهتمام المؤرخ الحديث للأفكار والمجتمعات لا تتوافق مع مراكز اهتمام المؤلفين القدماء ولذلك فلا داعي للإدانة والتأفّف والاستنكار. وإنّما ينبغي أن نوضح كتب السيرة الذاتية ضمن سياقها العقلي الذي ولدت فيه قبل أن نستخدمها كمصدر للمعلومات. إن هذا المبدأ المنهجي ضروري وملّح جداً بالنسبة لتاريخ الفكر العربي والإسلامي. ولا نستطيع أن نضطلع نحنُ هنا بهذه المهمة لأنه حتى لو حصرناها بالتواريخ الأساسية للفلسفة والأخلاق، فسوف تبدو واسعة جداً وأكبر من طاقتنا[2].

سوف نكتفي إذن بدراسة الملحوظات التي لها علاقة مباشرة بموضوعنا كما يفعل كتّاب الأطروحات عادةً.

ظلامية العصور الماضية

إنَّ حالة مسكويه توضح لنا بكل جلاء ذلك المصير المؤسف الذي لحق بعلماء الأخلاق والفلسفة في أغلب الأحيان. أقصد بأن التراث الثقافي الإسلامي لم ينصفهم للأسف الشديد بل وظلمهُم كثيراً.

إنّ ما نعرفه عن حياة مسكويه، وتنقله بين مدن أصفهان، وبغداد، والرّي، وما وراء النهر، وعلاقاته بكبار رجال الدولة من رعاة العلم والأدب، وتاريخ مؤلفاته، نَذرٌ يسير جداً. ومن ثم فإن الاستدلال على تفاصيل حياته من هذه المعلومات المحدودة لا يكاد يكون ممكناً بغير الاستقراء التاريخي الدقيق لمجريات الحال، في البلاد التي عاش فيها واستقرَّ، أو نزلها زائراً لمدة محدودة، لنرى ما إذا كانت أحوالها تسمح بوجوده فيها في هذه الفترة أو تلك. كما

---

(١) انظر: نزعة الأنسنة في الفكر العربي، جيل مسكويه والتوحيدي، محمد أركون، ترجمة: هاشم صالح، ص ٩٧، دار الساقي، لندن ـ بيروت، ١٩٩٧م.

(٢) كما قلنا بأنَّ عقليّة المؤلفين والمفكرين القدماء واهتماماتهم مختلفة جداً عن عقليتنا واهتماماتنا. وبالتالي فلا ينبغي أن نلومهم أو نسقط عليهم فهمنا الحالي، في عصر الحداثة "Modernization" وما بعد الحداثة "Post Modernization".